الغزو العربي لشمال إفريقيا

بين نبالة النص ودناءة الممارسة

تأليف الأستاذ: أحمد الزاهد



الغزو العربي لشمال إفريقيا

بين نبالة النص ودناءة الممارسة

تأليف الأستاذ: أحمد الزاهد



أعده للنشر وصففه لمؤسسة تاوالت
تامغناست

مقدمة

"إن تاريخ المغرب الكبير، عريض طويل، ضارب في الأزمنة، متغلغل في أعماق الدهور، خط على تراب هذه الأرض بعرق سكانها ودمائهم، ومن جهودهم وتضحياتهم كان هذا الميراث الحضاري الذي وسم الأرض وأهلها بالميزات الكريمة، وبالخاصيات التي عرفت لها على مر السنين.

ولو ساغ لأحد أن يلخص كنه هذا التاريخ في كلمة مختصرة ودالة لقال : إنه هو الانكباب على العمل في الأرض، والوقوف في وجه الأجنبي الدخيل." (1) على امتداد زمني يفوق الثلاثين قرنا.

" لكن مؤرخي العرب، ولست أستثني من بينهم الإمام ابن خلدون، قد تهاونوا بأمر ذلك التاريخ المجيد، فلم يذكروه في أسفارهم إلا منذ حلت برحاب المغرب فرسان العرب الفاتحين وبذلك أضاعوا لهذه البلاد عشرين قرنا من التاريخ لا يعرجون

(1) - محمد التازي سعود، كتاب "حرب يوغرطة" الطبعة الثانية 1981، مطبعة السلام، مقدمة بقلم عبد الهادي التازي.

(2) - أحمد توفيق المدني "قرطاجنة في أربعة عصور" المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص7.

عليها إلا استطرادا ولا يخصونها بأدنى عناية واهتمام"(2).

لذلك ارتأيت أن أستهل بحثي، بفصل تمهيدي، حاولت أن أتلمس فيه أهم ملامح تاريخ المغرب القديم، وركزت فيه بالخصوص على مختلف التدخلات الخارجية والحملات الاستعمارية التي توالت على المغرب منذ بداية التاريخ، والموقف البطولي والثوري لسكانه الرافضين دوما الرضوخ للأجنبي ولسلطته، والمتعشقين حتى الثمالة للحرية والاستقلال والكرامة.

وما جعلني أعرج على هذه الصفحات الخالدة من أمجاد المغاربة في تاريخهم القديم، هو أن تاريخ المغرب بشكل عام سلسلة متصلة بقوة، يرتبط فيها الحدث السابق بالحدث اللاحق عبر تلقائية غريبة، لا ندري أهي من أقدار التاريخ ومشيئته، أم هي من صنع وتصميم المغاربة وتحكمهم في زمام أقدار هذا التاريخ نفسه.

فقد "تعاقب على المغرب دخلاء كثيرون، يخضع بسهولة المتغلب اللاحق المتغلب السابق، ثم يواجه الصعوبة الحقيقية ويعجز عن إخضاع السكان الأصليين، فتظهر الأحداث وكأنها تعيد نفسها"(1).

كما أن اطلاعنا على هذه النبرات من تاريخ المغرب القديم، يجعلنا نحسن فهم الموضوع الرئيسي للبحث، الذي نتحدث فيه عن تجاوزات الفتح العربي الإسلامي ببلاد المغرب، لأننا نتحدث

(1) - عبد الله العروي، "مجمل تاريخ المغرب"، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثالثة 1992، ص 98.

في الفصل التمهيدي عن طبيعة المغاربة وميزاتهم، طريقة تعاملهم مع الأجنبي على امتداد التاريخ. العوامل التي تؤدي بهم إلى الثورة ... واسترخاصهم للغالي والنفيس في سبيل مجد الوطن وحرية الذات...

وكل هذا، يعكسه التاريخ كمرآة على الفترة التي سندرسها، بحيث أن الكثير من الأحداث والوقائع تعيد نفسيا بشكل غريب من خلال عمق التراكم التاريخي المغربي:

فقد كون المغرب سيادته منذ فجر التاريخ، حيث تفاعلت الحضارة المغربية مع الحضارة الفرعونية والحضارة الفنيقية والرومانية، والحضارة الشرقية الإسلامية وحافظ خلال تلك الفترة على قوته الفكرية واستقلاله السياسي ودافع المغاربة عن وطنهم بدمائهم: (يوغرطن _ تاكفاريناس _ إيديمون _ فيرموس _ غبلون _ أنطالاس _ كوتزيناس _ ايفيسداياس _ كسيلة _ الكاهنة (داهيا) _ ميسرة المطغري _ عبد الحميد الزناتي _ محمد عبد الكريم الخطابي _ موحا حموالزياني _ عسوباسلام ...) كل هذه الأسماء كانت وفية لمبدأ المغاربة : الحرية والاستقلال، فأشعلت ثورات على المستعمرين لم تخمد نارها حتى تحقيق هذا المبدأ، فسرعان ما كان المغربة يعلنون انفصالهم عن الدخلاء: الفنيقيون _ القرطاجيون _ الرومان _ الوندال _ البيزانطيون .... وسرعان ما أعلنوا أيضا استقلالهم عن المشرق، مباشرة بعد اعتناقهم الإسلام واحتفاظهم به في إطار دويلات مستقلة عن الخلافة المركزية في المشرق: (بورغواطة _ بنوعصام _ مكناسة _ بنومدرار_ بنويفرن _ مغراوة _ بنوزيري _

بنوحماد...) أوفي إطار إمبراطوريات كبرى: (المرابطون _ الموحدون _ المرينيون ...).

ولم يحافظ المغاربة على كيانهم المستقل اعتمادا على الجانب العسكري فقط بل واجهوا المستعمر مواجهة دينية وثقافية وفكرية.

" فهل من المجازفة أن يرى المؤرخ، ذوالنظرة الشمولية في " الدوناتية " سابقة تفسر بوضوح ما حدث في إفريقيا الشمالية، بين الإسلام الرسمي الأموي وبين الخوارج المغاربة؟ الم يكن سبب الانشقاق سياسيا قبل أن يكون دينيا في الحالات الثلاث: تنصر الأمازيغيين إذ كان القياصرة وثنيين، وانشقاقهم عن الكنيسة الرسمية إذ تنصر القياصرة، واتباعهم مذهب الخوارج ثورة منهم على سنية الأمويين ؟ ثم إن من حقنا ان نتساءل: هل اتخذ المغاربة المالكية مذهبا لهم على سبيل المصادفة فقط؟ ولم انفردوا بها أو كادوا ؟ "(1).

بعد ذلك انتقلت إلى الموضوع الرئيسي الذي عنونته "الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب بين نبالة النص ودناءة الممارسة."

ومن خلال العنوان نفهم التمييز الواضح الذي تعمدت إثارته، بين النص الإسلامي النبيل في مفهوم الفتح، وشروطه وأخلاقياته وطريقة التعامل مع سكان البلاد المفتوحة ومفهوم الدعوة ونظرة الإسلام للعمل العسكري ... وبين الممارسات

(1) - محمد شفيق، "لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الأمازيغيين " ، دار الكرم، 1989، ص 45.

الدنيئة التي سلكها بعض قادة الفتح ومن بعدهم ولاة الدولة الأموية ثم الدولة العباسية في المغرب. فحاولت أن أقف عند تجاوزات الفاتحين والولاة كأشخاص يشتغلون في إطار جهاز حكومي عام، على الكثير من المستويات: العسكرية، الأخلاقية، الإنسانية، الاقتصادية...

ثم رد المغاربة على هذه التجاوزات من خل ثورات عديدة انتهت بثورة الخوارج المغاربة الذين أعلنوا الاستقلال النهائي والتام للمغرب عن المشرق. وقد حاولت أن أعكس كذلك، الفصل الذي جعلته في العنوان بين النص الإسلامي وبين ممارسات الفاتحين والولاة، على مستوى المضمون، بحيث ميزت بين " الإسلام الحقيقي " و" الإسلام التاريخي "، "فالأول هو وحده حقيقي ويجب إنقاذه بأي ثمن، والثاني ليس إلا ظاهريا ن يمكن إدانته دون ضرر كبير"(1) كما حاولت أن أكون موضوعيا وباحثا ناقدا من خلال نزع صفة القداسة على هذا النوع من المواضيع، خصوصا و" قد عمل علم كتابة التاريخ " Historiographies " العربي بمثابة دفاع أكثر ما عمل بمثابة بحث حقيقي "(2) " فوراء ملحمة الغزوات والفتوحات، التي كانت تسيطر على الأفكار إعجابا وذهولا، كان يتميز تفلت أساس، أصبح هذا التفلت موطنا للجريمة"(3) وهذا ما يشكل صلب بحثي.

(1) - عبد الله العري، "الإديولوجية العربية المعاصرة" ترجمة محمد عيتابي، الطبعة الأولى، 1970 دار الحقيقة، بيروت، ص 78.

(2) - نفسه، ص 143.

(3) - نفسه، ص 224.

ومن جانب آخر، عملت على تبرئة الإسلام من هذه التجاوزات التي واكبت الفتوحات في بلاد المغرب، ثم تلك التجاوزات التي ارتكبها الولاة فيما بعد، لأنها تجاوزات أشخاص وأنظمة بعيدة عن مفاهيم الإسلام ومبادئه، خصوصا وأن الدولة الأموية، بميزاتها البعيدة عن حقيقة الإسلام هي التي احتضنت الفتوحات في بلاد المغرب، ثم بعد ذلك ركزت سلطتها الإدارية فيه بعد إنهاء مرحلة الفتح. وهذه التجاوزات يستغلها أعداء الإسلام لتشويه التاريخ الإسلامي بشكل عام، لذلك ينبغي بل ويتحتم علينا أن نبحث وندافع عن الإسلام الحقيقي الطاهر، وندين به وانطلاقا منه التجاوزات الكثيرة التي يزخر بها الإسلام التاريخي.

المبحث الثالث التجاوزات:

" يتصـف فتـح المغـرب _ دون الفتوحـات العربيـة الأخـرى _ بالصعوبـة الشـديدة والمقاومـة العنيـدة مـن جانـب أهـل البـلاد وهم البربر"(1). لاسـيما أن العرب كانـوا يطرقون الأبواب مصحوبين بقضهم وقضيضهم، على حد تعبير ابن عبد الحكم _ مستعدين للقتال ظاهري الرغبة في السبي والغنم فلا غرابة والحالة تلك أن ينهض الأهالي لرد ما يرونه هجوما استعماريا من النوع الذي كان لهم به سابق عهد(2) خصوصا وأن " العصبيات العربية شغلت جانبا عظيما من اهتمام حكام المغرب وصرفتهم عن الاهتمام الواجب بفتح البلاد وإسلام أهلها... وجعلت البلاد مسـرحا لحوادث شـتى من الاضطهـاد والظلم والمصـادرة... ولا ينبغي أن ننسـى الأخطاء الشـديدة في الحرب والسياسة التي وقع فيها جند العرب وقادتهم"(3).

على المستوى العسكري:

بتصفحنـا لمصـادر الفتـح العربي الإسـلامي لبـلاد المغرب تصادفنـا مجموعـة مـن النصـوص التـي تتحدث عـن تجاوزات عسـكرية واضحة وقع فيهـا الكثير من قادة الفتح وسـنحاول

---

(1) - سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، الجزء الأول، منشأة المعارف، 1979، ص 129.

(2) - محمد شفيق، مرجع سابق، ص 43.

(3) - حسين مؤنس، مرجع سابق، ص 269.

الوقوف عند أهمها، ويبدو أن " وليم مرسـيـيه " كان على صواب عندمـا قـال: " لـم تعد صورة جيـوش صدر الإسـلام وهي تغدو مدفوعة بحماسـة بالغة، وبإحدى اليدين السيف، وباليد الأخرى القرآن لتخضع الشـعوب للدين الجديد، نقول إن هذه الصورة لم تعـد مقبولة وليسـت إلا من خيال الشـعراء ... فخـلال التاريخ يبـدو لنا البدو بمظهر قلـة التقوى، وبالعجز تقريبـا عن الارتفاع إلـى عقيدة التوحيد لقلة ميلهم إلى الاستشـهاد في سـبيل مثل أعلى. ومن المؤكد قطعا أنه وجد بين قادة الحرب في الفتوح الإسلامية مؤمنون مخلصون وجنود لله ورسوله صادقون"(1).

حسـب وليم مرسـيـيه إذن، وجد ضمن قـادة الفتح مؤمنون مخلصون، كما وجد ضمنهم أيضا من تجاوز مبادئ الإسـلام في الجانب العسكري.

قرأنا لابن عذارى ما يلي:

" ثـم وجه ابن حديج عبد الملك بن مـروان في ألف فارس إلى مدينة جلولاء فحاصرها وقتل من أهلها عددا كثيرا حتى فتحها عنوة، فقتل المقاتلة وسبى الذرية، وأخذ جميع ما كان في المدينة وحمل ذلك كله إلى معاوية بن حديج"(2).

كما قرأنا له وهو يتحدث عن بعض غزوات عقبة ما يلي:

" فهزمهم، وقتلهم تقتيلا "(3).

(1) - ألفريد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص 79.

(2) - بن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ص 16.

(3) - نفسه، ص 24.

" وغزوتـه إلـى مدينة باغايـة ... فقاتلهم قتلا ذريعـا "(1). " فمضى إلى مدينة المنسـتير ... فقاتلهم قتالا شديدا، حتى ظن أنه الفناء "(2).

" ووصـل عقبـة بن نافع الفهـري إلى إفريقيـة ... فافتتحها ودخلها ووضع السـيف في أهلها"(3). " وأوغـل في الغرب يقتل ويأسر أمة بعد أمة، وطائفة بعد طائفة"(4).

" وغزوته أيضا للبربر بالسـوس الأدنـى ... فهزمهم وأفناهم وبـث الخيـل في بلادهـم فافترقت فـي طلبهم إلـى كل موضع هربـوا إليـه"(5). " وغزوته أيضا للسـوس الأقصـى ... فقتلهم قتالا ما سـمع أهل المغرب بمثله حتى هزمهم وقتل منهم خلقا عظيما"(6).

ونقـف عند هذا النص للرقيق القيرواني: " فرحل من طنجة إلـى السـوس الأدنـى ... فانتهى إلـى أوائلهم فتلقـوه في عدة عظيمـة وقتلهم قتـلا ذريعا وهرب بقيتهـم، وافترقت خيله في طلبهم إلى كل موضع هربوا إليه من الأرض"(7).

(1) - نفسه، ص 24.

(2) - نفسه، ص 24.

(3) - نفسه، ص 19.

(4) - نفسه، ص 26.

(5) - نفسه، ص 27.

(5) - نفسه، ص 27.

إبراهيم بن القاسـم الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق عبد الله العلـي الزيـدان وعز الدين عمر موسـى، دار الغرب الإسـلامي، الطبعة الأولى، 1990، ص 14 – ص 15.

هذه إذن مجموعة نصوص، نقلناها عن مصادر فتح بلاد المغرب، نصوص تدين بشكل واضح سياسة عقبة في بلاد المغرب وتعامله مع سكانه، " فلم يكن نشر الإسلام غاية واضحة في ذهن عقبة، إذ لو كان يطلب هذا، فليست تلك هي السبيل التي تؤدي إلى إدراك هذه الغاية، إنما تدرك بالوقوف بكل قوم وبلد وعرض الإسلام، وتخيير الناس بينه وبين الحرب والجزية، ... أما عقبة فكان ينقض على المدائن محاربا مقاتلا، ويلبث على ذلك فترة ثم ينصرف دون أن ينتهي مع أهل البلد إلى شيء معلوم"(1). فكان عسكريا عنيفا في سياسته، ذلك العنف الذي يعبر عنه ابن الأثير تعبيرا رائعا عندما يقول: " وقتل المسلمون فيهم حتى ملوا "(2).

" بل لو كان يرجو نشر الإسلام لخلف فيما مر به من البلاد نفرا يعلم أهله الإسلام "(3) " والواقع أن عقبة بن نافع لم يكن لديه تلك النظرة السياسية الهادئة التي كانت لأبي المهاجر دينار "(4). " الذي ترك سياسة العنف مع البربر ولجأ إلى سياسة اللين والمداراة معهم محاولا استمالتهم عن طريق نشر الإسلام بينهم، وقد نجحت هذه السياسة نجاحا كبيرا"(5) فعقبة إنما كان شديد الشبه بفرسان الصليبيين الذين كانوا يخرجون من دورهم

(1) - حسين مؤنس، مرجع سابق، ص 203.

(2) - سعد زغلول عبد الحميد، مرجع سابق، ص 203.

(3) - حسين مؤنس، مرجع سابق، ص 203.

(4) - صابر محمد دياب، مرجع سابق، ص 85.

(5) - أحمد المختار العبادي، مرجع سابق، ص 41.

ويعبرون البحر إلى غير غاية معلومة فما يدري أحدهم أخلاص بيت المقدس أراد أم مجرد قتال المسلمين أم كسب الثروة والعودة بالمال".(1) وهذه الأمور التي بدرت منه، سواء العنف الشديد، أو العسكرية الصارمة الجارفة انتقده فيها أبو المهاجر بقوله:

" بئس ما صنعت، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة العرب "(2) " غير أن عقبة لم يأخذ نصيحة أبا المهاجر مأخذ الجد، فما لبث مخططه الجديد أن تبلور بالخروج على النطاق المحلي المألوف الذي كان طابع الأعمال العسكرية في عهد أبي المهاجر"(3).

غير أن خطأ عقبة الفادح ليس في عدم سماعه لنصيحة أبي المهاجر " ولا في غزوه لقبائل أعلنت إسلامها وإنما في منهجه وأسلوب تعامله وما وراءه من أهواء المجد الشخصي، فقد رفض مصالحة البربر وتوخي سياسة اللين والمودة إزاءهم، بل إن الأمر بلغ به إلى حد التخلي عن تلك القاعدة التي عمل بها بعض قادة المسلمين والمتمثلة في اعذار الطرف المقابل وجعله يختار واحدة من ثلاث : الإسلام أو الجزية أو الحرب ... ومن هنا فإن عقبة تمشيا مع نوازعه الذاتية، فضل مسلك القوة واستعمال العنف ولم يعرف عنه أنه جنح في حق البربر إلى السلم ماعدا ما ذكر عن بلاد دكالة من أنه عرض عليها الإسلام

(1) - حسين مؤنس، مرجع سابق، ص203.

(2) - ابن عذاري، مرجع سابق، ص 29.

(3) - ابراهيم بيضون، " ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري "، دار النهضة العربية، بيروت، 1979، ص 179.

فرفضت فقاتلها. وقد أودى ذلك بعدد كبير من أصحابه، وكان من الممكن تفادي هذه الخسارة الجسيمة لو تخلى عقبة عن العناد والأسلوب الذاتي"(1).

" وهكذا أضاع على نفسه فرصة كبرى، واستعاض عن ذلك بحرب شعواء هوجاء شنها على أهل البلاد، بلا غرض محدود ولا نتيجة ترجى ولا معنى يفهم فضاع جهده هباء"(2). بل جنى على نفسه بأن أيقظ في السكان روح الثورة وكانت نهايته على يدهم.

ومقتل عقبة على يد البربر، ستؤدي إلى تجاوزات أخرى، سيقترفها زهر بن قيس البلوي، الذي تشير كل الدلائل إلى أن تدخله في بلاد المغرب كان بدافع انتقامي صرف، فعلى هذا الأساس كان اختيار عبد الملك بن مروان له بحيث قال: " لا يصلح للطلب بدم عقبة من الروم والبربر إلا من هو مثله دينا وعقلا" فاستشار مع وزرائه، فاجتمع رأيهم على تقديم زهير بن قيس البلوي وقالوا: " هذا صاحب عقبة، وأعلم الناس بسيرته وتدبيره وأولاهم بطلب دمه " .

" كما يفهم من النصوص أن غزوة زهير هذه كانت حملة تأديبية أولا وقبل كل شيء، فبعد أن انتقم زهير لمقتل عقبة واخذ بثأره، عاد نحو المشرق في طريقه إلى مصر."(3) "بعد أن

(1) - حسين مؤنس، مرجع سابق، ص 181.

(2) - ابن عذاري، مرجع سابق، ص 31.

(3) - سعد زغلول، مرجع سابق، ص 210.

أثخن قتلا في أهل المغرب ففزع منه أهل إفريقية واشتد خوفهم ولجوا إلى الحصون والقلاع "(1).

ويبدو أن موسى بن نصير كان وفيا هو الآخر لهذه السياسة العسكرية، بحيث خرج " غازيا من إفريقية إلى طنجة، فوجد البربر قد هربوا إلى الغرب خوفا من العرب فتبعهم وقتلهم قتلا ذريعا وسبى منهم سبيا كثيرا، حتى بلغ السوس الأدنى وهو بلاد درعة فلما رأى البربر ما نزل بهم، استأمنوا وأطاعوا"(2). وقبل كل هؤلاء القادة، كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح قد دشن هذه الصرامة العسكرية، في أولى السرايا التي وجهت نحو بلاد المغرب، بحيث انه " لما وصلت السرية إلى طرابلس، استولت على مركب كان راسيا بالقرب منها وأسر المسلمون من فيه، حتى أدركهم عبد الله بن سعد بجموع جيشه فأمر بقتل الأسرى"(3). فلم تزد حملته على غارة طال أمدها وكثرت أحداثها، ولكنها انتهت دون أن تخلف وراءها أثرا كبيرا"(4).

أعتقد أنه، لا يمكن إطلاقا، لأي باحث أن يمر على هذه التجاوزات العسكرية مر الكرام، فالواقع أن المؤسسة العسكرية، أثناء حملات الفتح، طغت بشكل رهيب على مؤسسة الدعوة، وهذا يتناقض بطبيعة الحال مع مفهوم الفتح وجوهره وشروطه وقوانينه وأخلاقياته التي برزت بشكل واضح خلال الفتوحات

(1) - الرقيق القيرواني، مرجع سابق، ص 20.

(2) - ابن عذاري، رجع سابق، ص 42 .

(3) - عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص156.

(4) - حسين مؤنس، مرجع سابق، ص 106.

التي قادها الرسول صلى الله عليه وسلم ومن بعده الخلفاء الراشدون، لكن بروز هذه النزعة العسكرية العنيفة أمر طبيعي، عند قادة الفتح، لأن الإطار المرجعي الذي احتضن الفتوحات في بلاد المغرب هو الدولة الأموية " التي نحت في مسارها التنظيمي شكلا انقلابيا تطورت معه من الخلافة إلى الملكية أومن التيوقراطية الدينية إلى الأوتوقراطية الفردية وتعدت هذه التغييرات مضمون الحكم إلى مظاهره التي أصبحت بدورها زمنية مقتبسة من النظام البيزنطي بوجه خاص ... ومن ناحية أخرى فإن معاوية استولى على الحكم في ظل أجواء غير طبيعية، أي أن السلطة لم تأت إليه انتخابية أو أجماعية، بل جاءته عن طريق القوة وذلك في حرب أهلية دامية، ومن الواضح أن أي نظام يشاد على السيف لا بد أن يحميه السلاح نفسه أو كان عرضة للانهيار"(1).

فالطابع العسكري إذن كان من أكثر سمات هذه الدولة بروزا فقد زامنها في جميع المراحل من الولادة التي تمت بالقوة إلى النهج القمعي في التعامل مع المعارضة وخصوم النظام (الحجاج) وأخيرا إلى السقوط الذي تم بالقوة أيضا"(2).

" غير أن تكوين هذه المؤسسة (الجيش)، تم في إطار النظام القبلي التقليدي ... وكانت الخطورة في ذلك إن الجيش الأموي تحول مع الوقت إلى طبقة عسكرية تمتعت بامتيازات خاصة

(1) - إبراهيم بيضون، مرجع سابق، ص 149.

(2) - نفسه، ص 150.

ومتفوقة وتحركت وفق مصلحتها الاقتصادية، حتى أن العمليات الحربية التي تم تنفيذها في العصر الأموي، كانت انعكاسا لهذه المؤسسة، فلم تعد حركة الفتح قضية مبدئية كما كان الحال بالنسبة لمقاتلي العصر الأول من الإسلام، بعد أن افتقدت الكثير من مضامينها الإنسانية حيث لجأ الخلفاء والولاة إلى تسييس الفتوح وإخضاعها لاعتبارات مرحلية كامتصاص النقمة أو ارواء رغبات الجند المتعطشين للمال وللسيطرة ومن ثمة إبعادهم عن التدخل في شؤون الحكم فضلا عن النزعة الإمبراطورية لدى الخلفاء الأمويين وسعيهم إلى إقامة دولة عظمى محورها العنصر العربي الذي اقتصرت عليه القوة العسكرية"(1). وهذا ما جعل الفتوحات تستأثر بتشجيع الخليفة ومعاونيه، الذين وجدوا فيها تغطية لأخطائهم وتجاوزاتهم ومن ثمة إسكاتا للضجيج والانتقاد حولهم، ومن هؤلاء كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح حاكم مصر الذي تحمس لسياسة التوسع هذه"(2).

وهذا البروز القوي للمؤسسة العسكرية، هو الذي جعل (فون فلوتن) يتطرف في موقفه " ليفرغ الفتوحات من أية مضامين إنسانية أو تبشيرية، واصفا إياها بالاحتلال حيث يعيش شعب منتصر على حساب آخر مغلوب"(3).

(1) - إبراهيم بيضون، مرجع سابق، ص 149.

(2) - نفسه، ص 83-82.

(3) - إبراهيم بيضون، " الدولة الأموية والمعارضة، مدخل إلى كتاب السيطرة العربية للمستشرق الهولندي فون فلوتن ". دار الحداثة، الطبعة الأولى، 1980، ص 12.

على المستوى العنصري والأخلاقي والإنساني :

رأينا فيما سبق، أن الدولة الأموية _ باعتبار أنها الجهاز المحتضن للفتوحات في بلاد المغرب _ كانت دولة عسكرية بامتياز، ومما زاد في خطورة هذه الميزة أنها كانت " دولة عربية اكثر منها إسلامية "(1).

" وليس هناك ما يدين هذه النزعة العربية لدى الأمويين، وهم في الأصل احد فروع القبيلة القيسية الشهيرة (قريش)، ولكن الخلل الذي أصاب دولتهم منذ نشأتها هو عدم التأقلم مع المتغيرات الجديدة التي كان مطلوبا من هذه الأخيرة أن تكون في مركز الريادة الدائمة لها، وليس العكس، إذ أنها بقيت محتفظة بطابعها المحلي والقبلي دون استيعاب ما أحدثته العقيدة الإسلامية وحركة الفتوح التي أفرزتها، من انقلاب جذري وحاسم في تاريخ المنطقة ." فانفردت خلافة الأمويين بشخصيتها القومية دون ما سبقها أو جاء بعدها من الدول الإسلامية(2)".

ويرى (فلوتن)، كغيره من المؤرخين أو معظمهم بأن الطابع

(1) - أبو الحسن الندوي، " رجال الفكر والدعوة في الإسلام "، دار القلم، الطبعة الخامسة، ص 33.

(2) - نفسه، ص 360.

العام لدولة الأمويين إنما كان دنيويا بكل تفاصيله، وهو نتيجة لذلك الاختلاف في رؤية الخلفاء السياسية والاقتصادية وفي علاقات المجتمع المتنافر بعناصره وطبقاته وكذلك في تسييس الفتوح الخاضعة في المقام الأول لمشيئة الولاة والمفرغة من المضمون الجهادي الذي كان أحد العوامل الأكثر تحريكا للفتوحات الراشدية"(1). "لذلك فإن الفتوحات الأموية تطبعت بشخصيات الخلفاء المفتونة إلى حد كبير بالنموذج القيصري الذي انتقل إلى حياة القصور في دمشق" كما تطبع قادة الفتح بميزات الدولة الأموية : العنصرية العربية _ الفساد الأخلاقي والإداري والدنيوية المستمدة من تقليد النموذج القيصري البيزنطي. ولا حاجة لنا هنا إلى التذكير بالماضي السيئ لأغلب هؤلاء القادة. وسنعطي مثالين فقط. فقد عرف عن عبد الله بن سعد أنه كان يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابة الوحي، أما موسى بن نصير فقد اشتهر باختلاساته الكبيرة لخراج مصر.

يورد ابن عبد الحكم في كتابه " فتوح إفريقية والأندلس "، نصا، نراه مهما جدا لذلك "فخلف عقبة بن نافع جيشه هناك ... ثم سار بنفسه ومن خف معه، أربع مائة فارس وأربع مائة بعير ... حتى قدم ودان فافتتحها، واخذ ملكهم فجدع أذنه، فقال: لم فعلت هذا بي؟ وقد عاهدتني. فقال عقبة: فعلت هذا بك، أدبا لك، إذا مسست أذنك ذكرته، فلم تحارب العرب. واستخرج منهم ما كان بسر فرضه عليهم ثلاثمائة رأس وستين رأسا ثم

(1) - إبراهيم بيضون، "الدولة الأموية والمعارضة ". ص 13.

سألهم عقبة هل من ورائكم أحد؟ فقيل له جرمة وهي مدينة فزان العظمى فسار إليها ثماني ليال من ودان، فلما دنا منها أرسل فدعاهم إلى الإسلام فأجابوا فنزل منها على ستة أميال، وخرج ملكهم يريد عقبة وأرسل عقبة خيلا فحالت بين ملكهم وبين موكبه فأمشوه، راجلا حتى أتى عقبة وقد لغب، وكان ناعما فجعل يبصق الدم، فقال له: لم فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعا؟ فقال عقبة: أدبا لك إذا ذكرته لم تحارب العرب، وفرض عليه ثلاثمائة عبد وستين عبدا ووجه عقبة الرحل من يومه ذلك إلى المشرق.

ثم مضى ... فسألهم هل من ورائكم أحد؟ قالوا نعم، أهل خاوار ... فسار إليهم خمس عشرة ليلة، فلما انتهى تحصنوا فحاصرهم شهرا فلم يستطع لهم شيئا، فمضى أمامه إلى قصور خوار فافتتحها حتى انتهى إلى أقصاها وفيه ملكها فقطع أصبعه فقال: لم فعلت هذا بي؟ قال أدبا لك إذا نظرت إلى إصبعك لم تحارب العرب، وفرض عليه ثلاثمائة عبد وستين عبدا"(1).

ونقرأ لابن عبد الحكم كذلك ما يلي: " ثم رجع عقبة إلى خاوار من غير طريقه التي كان اقبل منها، فلم يشعروا به حتى طرقهم ليلا فوجدهم مطمئنين قد تمهدوا في أسرابهم، فاستباح ما في المدينة من ذرياتهم وأموالهم وقتل مقاتلتهم"(2).

كما لا يغيب علينا، تصرف عقبة مع كسيلة، الذي لا يخلو

(1) - ابن عبد الحكم، " فتوح إفريقية والأندلس "، ص 52-51.

(2) - نفسه، ص 53.

من إهانة واضحة صادرة عن عنصرية جامحة، ونعلم أن كسيلة ثبت إسلامه منذ ولاية أبي المهاجر، وهو زعيم قومه، ورغم ذلك، فقد تعمد عقبة الإساءة إليه، بحيث أتى بغنم فأمره بذبحها وسلخها مع السالخين، فقال كسيلة: " هؤلاء فتياني وغلماني يكفونني المؤونة، فشتمه وأمره بسلخها، ففعل"(1).

وأعتقد أن أي باحث موضوعي سيفسر هذه التصرفات التي صدرت عن عقبة على أنها تجاوزا عنصريا، من قائد مسلم جاء حاملا رسالة نبيلة ليدعو الناس ويرغبهم ويكسبهم إلى جانب الإسلام، وإلى جانب الدولة الإسلامية الفتية، لكن هذه الرسالة غابت تماما وطغت عليها، " خصال عقبة التي ضل كثيرا من المؤرخين يتجاهلونها لما فيها من الإساءة إلى شخصه فهو من الذين تنزع بهم أنفسهم إلى إذلال الآخرين والتصرف معهم بشكل لا يخلو من عنصرية والذي يبدو من هذه التصرفات أن عقبة ذو نزعة سادية واضحة"(2) أبعدته كل البعد عن القائد المسلم المثالي الكفيل بدعوة الناس إلى الدين الجديد.

ولم تغب هذه التصرفات العنصرية عن موسى ابن نصير الذي " فتح سجومة وقتل ملوكها وأمر أولاد عقبة عياضا وعثمان وأبا عبدة أن يأخذوا حقهم من قاتل أبيهم فقتلوا من أهل سجومة ستمائة رجل من كبارهم"(3) كما أنه لما خرج " من افريقية غازيا إلى طنجة، وجد البربر قد هربوا من المغرب خوفا

(1) - ابن عذاري، البيان المغرب ج 1، ص 29.

(2) - محمد المختار العرباوي، البربر عرب قدامى، ص 29.

(3) - ابن عذاري، البيان المغرب ج 1، ص 41.

من العرب، فتبعهم وقتلهم قتلا فاحشا وسبى منهم سبيا كثيرا..."(1). " فكان قدوم موسى افريقية وما حولها مخوفا أي مرعبا لأهلها"(2). "لأنه طفق يشتد على المغاربة، بدلا من أن يتألف قلوبهم ويصانعهم، كسبا لمودتهم إلى جانب دولة بني أمية والدين الحنيف، ولذلك ارتاعوا منه وشكوا فيه، بل امتد شكهم إلى الحاكم الذي يمثله موسى بن نصير"(3).

كما أن حسان " بعد أن استقر في القيروان ... فكر في بناء مدينة ... كان على البربر أيضا أن يساهموا في البناء، فتقرر أن يكون جلب الخشب اللازم لصناعة المراكب من غابات الجبال الداخلية، نوعا من التكليف يقومون به، ونظن أن ذلك العمل كان نوعا من الخدمة أشبه بالجندية الإلزامية، إذ يقول نص للبكري: " ليكون ذلك جاريا عليهم إلى آخر الدهر "(4).

هذا فيما يخص المظاهر العنصرية التي جسدها بعض قادة الفتح، وما يلفت النظر من جانب آخر، هو هذه الأعداد الضخمة والخيالية التي تزخر بها المصادر والمتعلقة بالسبي، هذه العملية التي كان عمرو بن العاص قد دشنها منذ الغزوات الأولى في بلاد المغرب بعد فتح مصر، بحيث أنه " لم يكد يفرغ من معاهدة الإسكندرية، حتى سار في جنده يريد أولى بلاد المغرب " ، " وهي مدينة أنطابلس، فصالح أهلها على الجزية وهي ثلاثة ألف دينار،

(1) - الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، ص 39.

(2) - ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج 2، مطبعة المعرفة بيروت، ص 51-50.

(3) - صابر محمد دياب حسن، بلاد المغرب في القرن الأول الهجري، ص 135.

(4) - سعد زغلول، مرجع سابق، ص 232.

يبيعون فيها من أبنائهم ما أحبوا بيعه"(1)، والنص يتضح منه تماما أن المقصود هم أبناء وبنات اللواتيين، والبنات بصفة خاصة فيما نرى، يؤيد ذلك ما كتبه فيما بعد الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز_ الذي راعه الأمر_ في اللواتيات، " أن من كانت عنده لواتية ليخطبها إلى أبيها أو فليردها إلى أهلها " وهذا يعني أن دفع البنات في جزية لواتة ظل معمولا به إلى أواخر القرن الأول الهجري"(2).

وهنا أرى أنه من الضروري إيراد الكتاب الذي بعثه خالد بن الوليد إلى الخليفة أبي بكر ليطلعه على الاتفاق الذي عقده مع أهل الحيرة في إطار دفع الجزية لنقف أمام القيم النبيلة والأخلاق الإسلامية الحقة في التعامل مع سكان البلاد المفتوحة. يقول خالد بن الوليد: " إن خليفة رسول الله أمرني أن أسير بعد منصرفي من أهل اليمامة إلى أهل العراق من العرب والعجم، بأن ادعوهم إلى الله جل ثناؤه وإلى رسوله عليه السلام وأبشرهم بالجنة وأنذرهم من النار فإن أجابوا فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. وإني انتهيت إلى الحيرة، فخرج إلي إياس بن قبيصة الطائي (آخر حكام الحيرة التابعين للفرس) في أناس من أهل الحيرة من رؤسائهم وإني دعوتهم إلى الله ورسوله فأبوا أن يجيبوا، فعرضت عليهم الجزية أو الحرب. فقالوا لا حاجة لنا لحربك ولكن صالحنا على ما صالحت من غيرنا من أهل الكتاب في إعطاء الجزية، وإني نظرت في عدتهم فوجدت عدتهم سبعة آلاف رجل.

(1) - ابن عبد الحكم، فتوح افريقية والأندلس، ص 29.

(2) - سعد زغلول، مرجع سابق، ص 133.

ثــم ميزتهم فوجدت من كانت به زمانه ألف رجل، فأخرجهم من العــدة فصار من وقعت عليه الجزية ســتة آلاف، فصالحوني على ســتين ألفا، وشــرطت عليهم أن عليهم عهد الله وميثاقه الذي أخذ على أهل التوراة والإنجيل، أن لا يحالفوا ولا يعينوا كافرا على ســلم لا من العرب ولا من العجم، فإن هم خالفوا فلا ذمة لهم ولا آمــان، وإن هــم حفظوا ذلك ورعوه وأدوه إلى المســلمين فلهم مــا للمعاهدة وعلينا المنع لهم ... وجعلت أيما شــيخا ضعف عن العمــل أو أصابتــه آفة من الآفات أو كان غنيــا فافتقر وصار أهل دينــه يتصدقون عليه، طرحــت جزيته وعيل من بيت المســلمين بالنفقــة على عيالهــم. وأيما عبد من عبيدهم أســلم أقيم في أســواق المســلمين فبيع بأغلى ما يقدر عليهم ... ودفع ثمنه إلى صاحبه ولهم كل ما لبسوا من الزي إلا زي الحرب"(1).

هــذا النص يبين طبيعــة الفتوحات الراشــدية، حيث حضور مؤسســة الدعــوة، مراقبة الخلفاء عــن كثب لســير الفتوحات، التعامــل الأخلاقي مع الســكان، أخلاقيات المطالبــة بالجزية مع مراعاة أحوال الناس....

بعد هذه الوقفة القصيرة مع أبي بكر الصديق، ومع خالد بن الوليد، نعود إلى موضوع الســبي، الذي أشــرنا سابقا أن أعداده كانــت ضخمة، وســنحاول الوقــوف عند ذلك انطلاقــا من هذه النصوص:

فهــذا نص للرقيق وهــو يتحدث عن عقبــة: " ومضى كذلك

(1) - إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، ص 47، نقلا عن أبي يوسف: " كتاب الخراج "، ص85-84

حتى دخل الســوس الأقصــى، واجتمع البربر فــي عدد لا يحصى فلقيهــم فقاتلهــم قتالا شــديدا ما ســمع أهل المغــرب بمثله، فقتل منهم خلقا عظيما، وأصاب نســاء، لم ير الناس في الدنيا مثلهن فقيــل، إن الجارية منهن كانت تبلغ بالمشــرق ألف دينار أو نحوها"(1).

أما حســان بــن النعمان فلما قدم على عبــد العزيز بن مروان " أهــدى إليه مائتي جارية مــن خيار ما معه، ويقال إنه كان معه من السبي خمسة وثلاثين ألف رأس مما لم يدخل المشرق مثله ... فانتخب منها عبد العزيز ما أحب..."(2).

" ويقال بل أخذ منه عبد العزيز كل ما كان معه من السبي، وكان قــد قدم معه من وصائف البربر بشــيء لم ير مثله جمالا، فكان نصيب الشــاعر يقول حضرت السبي الذي كان عبد العزيز أخذه من حسان، مائتي جارية منها ما يقام بألف دينار"(3).

" أما عن حملات موســى في المغرب الأوسط والأقصى، فقد نجحت نجاحا باهرا وكانت أشــبه ما تكون بنزهات عســكرية كما يقــال، فالكتــاب لا يتكلمــون إلا عــن أعداد خيالية من الســبي والأسرى تصل في بعض المدن إلى 100 ألف رأس وأكثر"(4).

فالرواية تقول أن " موســى بن نصير حين غزا المغرب بعث ابنه

(1) - الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، ص 15.
(2) - نفســه، ص 37-36.
(3) - ابن عبد الحكم، م. س، ص 65.
(4) - ســعد زغلول، م. س، ص 241.

مروان على جيش فأصاب من السبي مائة ألف، وبعث ابن أخيه في جيش آخر فأصاب مائة ألف ... فلما أتى كتابه بذلك قال الناس: ابن نصير والله أحمق من أين له عشرون ألفا يبعث بها إلى أمير المؤمنين في الخمس، فبلغ ذلك موسى بن نصير فقال: " ليبعثوا من يقبض لهم عشرين ألفا"(1).

" فلم يسمع بمثل سبايا موسى بن نصير في الإسلام"(2) حتى انه كان يتفاخر بأعدادها الكبيرة فقال مرة لأصحابه : "أصبحت اليوم في ثلاث نعم ... وأما الثالثة فانا أريكموهن وقام فأمر برفع ستر فإذا فيه جوار مختلفات كأنهم البدور الطوالع من بنات ملوك الروم والبربر عليهن الحلي والحلل فهنئ أيضا بذلك"(3).

وكان موسى قد بدأ في تكوين هذه المملكة من السبايا منذ بداية ولايته بلاد المغرب " فأول فتوحه قلعة زغوان ونواحيها ... وبنواحي زغوان قبائل بربر بعث إليهم موسى خمسمائة فارس ... فبلغ سبيهم عشرة آلاف وهو أول سبي دخل القيروان في ولاية موسى"(4)، " ثم فتح هوارة وزناتة وكتامة، فأغار عليهم وقتلهم وسباهم، فبلغ سبيهم خمسة آلاف رأس "(5)، " وذكر ابن أبي حسان أن موسى لما فتح سقيوما، كتب إلى الوليد بن

---

(1) - ابن عبد الحكم، فتوح افريقية والأندلس، ص 69.

(2) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 43.

(3) - نفسه، ص 44.

(4) - نفسه، ص 40.

(5) - نفسه، ص 41.

عبد الملك أنه سار لك من سبي سقيوما مائة ألف رأس، فكتب إليه الوليد: ويحك إني أظنها من بعض كذباتك، فإن كنت صادقا فهذا محشر الأمة"(1). كما كتب موسى إلى عبد العزيز يعلمه بالفتح ويعلمه أن الخمس بلغ ثلاثين ألفا، وكان ذلك وهما من الكاتب: كتب ثلاثين ألفا بدل من ستين ألفا، فلما قرأ عبد العزيز بن مروان الكتاب، وأن الخمس من السبي ثلاثون ألفا، استكثر ذلك، ورأى أنه وهم من الكاتب لكثرته فكتب إلى موسى يقول له: " إنه قد بلغني كتابك تذكر أن خمس ما أفاء الله عليك ثلاثون ألف رأس، فاستكثرت ذلك وظننته وهما من الكاتب فاكتب بالحقيقة " فكتب إليه موسى: " قد كان ذلك وهما من الكاتب على ما ظنه الأمير، والخمس أيها الأمير، ستون ألف رأس ثابتا بلا وهم. فلما بلغه الكتاب، عجب كل العجب وامتلأ سرورا"(2).

هذه الأرقام، تبين إلى أي حد اهتم موسى بن نصير أثناء ولايته على المغرب بالجري وراء جمع الجواري المسبيات، ومن شدة سعيه لجمع السبي أنه ما أن وصلته وهو في القيروان أنباء ذلك النجاح الباهر الذي حققه طارق في الأندلس، بعد أن كان وصله نصيبه في الخمس من الأموال والسبايا من الإسبانيات الجميلات حتى "هرع في السنة التالية 93 هـ بمن كان معه من القوات العربية "(3) فجمع موسى أعدادا هائلة من السبايا، فقد سهر معه ليلة يزيد بن المهلب، " فقال له: يا أبا عبد الرحمان في كم

---

(1) - الرقيق القرواني، تاريخ افريقية والمغرب، ص 45.

(2) - ابن عذاري، م. س، ص 40.

(3) - سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ج1، ص 250.

كنت تعتد، أنت وأهل بيتك من الموالي والخدم: أتكونون في ألف ؟ فقال: نعم وألف ألف إلى منقطع النفس "(1).

وهذه ميزة تميز بها موسى بن نصير كثيرا، في أوساط قادة الفتح ومجالس الخلفاء.

(1) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 46.

على المستوى الاقتصادي:

"عدد من المستشرقين والكتاب العرب المعاصرين، يرون بأن العامل الاقتصادي كان المحرك الأقوى لإستراتيجية الفتح عند العرب، ولقد بلغ الأمر ببعضهم إلى اعتبار حركة الفتوح إحدى الهجرات السامية المتأخرة التي اعتادت على قذفها شبه الجزيرة الجدباء"(1) ومن ابرز الذين قالوا بهذا، المستشرق " كيتاني Coetani " و" روم لاندوRom Lando ". هؤلاء يجردون " الفتوحات تقريبا من كل مضامينها باستثناء الحاجة إلى تطوير النظم الاجتماعية، وتحسين الأوضاع المعيشية لعرب شبه الجزيرة، الذين اندفعوا في موجات، تشبه حسب زعمهم الموجات السامية القديمة، أوفي غزوات كالتي ألفتها القبائل في مشاحناتها الضارية قبل الإسلام"(2).

ويبدو هذا الموقف متطرف جدا، لأنه يغفل الظروف الجديدة التي أصبحت تعيشها شبه الجزيرة العربية بعد احتضانها للدعوة الإسلامية وضرورة تصديرها للخارج، في إطار حركة الفتح الإسلامي.

(1) - إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، ص 36.

(2) - نفسه، ص 38.

لكـن هذا لا ينفي بتاتا وقوع هـذه التجاوزات الاقتصادية من طرف قادة الفتح وجيوشهم وقبل هؤلاء، من طرف خلفاء الدولة الأموية، ولا أدل على ذلك من وقوع صدامات ونزاعات كثيرة وخطيرة بين قادة الفتح، وبينهم وبين الخلفاء بسبب العامل الاقتصادي.

" فالاندراج تحت لواء العقيدة وفق مخطط تبشيري للدعوة إلى الإسلام ليس كافيا لتعبئة جماعات كان الإيمان الصحيح يعوز بعضها"(1). " كما أن مفهوم الجهاد لديها، لم يكن يعني فقط، التضحية والتماس الحياة المثلى في الآخرة، فهو في مضمونه يعني مباشرة الجانب الدنيوي في شخصية المقاتل العربي المسلم ... أي أن للجهاد محتواه المثالي هو التضحية في الوقت الذي اتخذ فيه بعده الدنيوي متمثلا في الغنائم وعائدات الحرب الأخرى"(2).

" وإذا كانت الأعمال التي قام بها الفاتحون الأوائل، تؤكد إخلاصهم لقضية مشتركة تفوقت على أي اهتمام آخر ... فإن الأنانية وكذلك الجشع سرعان ما استأثر بالقلوب بعد وقت قريب وغمر رجال الصحراء ترف غير عادي انصب عليهم من كل ناحية مما كان له أثره في إفساد النفوس أكثر من تهذيبها، ولقد أصابت الأسر المرموقة في الكوفة ثراء فاحشا كان مصدره الغنائم والأعطيات السنوية، فكان الكوفي إذا ذهب إلى الحرب يصطحب

(1) - ابراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري، ص 39.

(2) - نفسه، ص 41.

معه أكثر من ألف من الجمال عليها متاعه وخدمه "(1). " فكان الدافع الرئيسي لاندفاع جموع الأعراب، البدو المولعين بالنهب والمغامرات نحو الأراضي الخصبة المحيطة هو وفرة الغنيمة في الحرب والرواتب المضمونة من بيت المال"(2). " بعد أن كان المسلمون منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وحتى عهد الخليفة عمر بن الخطاب يقاتلون بدون عطاء أو رزق ثابت"(3) أي بدافع جهادي صرف وعند مطالعتنا لكتب الفتح العربي الإسلامي للمغرب، تبدو لنا العمليات العسكرية وكأنها موجهة فقط للسبي والغنم والحصول على الأموال وتبدو للدولة الأموية مسؤولية كبيرة في ذلك، ويرجع ذلك " إلى أطماعها في خيرات بلاد المغرب منذ السنوات الأولى للفتح، حيث بلغ جشع بعض قوادها مداه، فكانوا يسترقون أبناء البربر حين يعجزون عن دفع ما عليهم من أموال، وتطالعنا المراجع عن وفرة الغنائم والفيء الذي كان يوزع على الفاتحين بعد المعارك العسكرية"(4).

فعبد الله ابن سعد، بث السرايا وفرقها " فأصابوا غنائم كثيرة، فلما رأى ذلك رؤساء أهل إفريقيا طلبوا إلى عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم مالا على أن يخرج من بلادهم فقبل منهم ذلك ورجع إلى مصر، ولم يول عليهم أحدا ... فبلغ سهم الفارس

(1) - إبراهيم بيضون، الدولة الأموية والمعارضة، ص 66.

(2) - ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص 82.

(3) - خالد جاسم الجنابي، تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي، ص 79.

(4) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي منهج وتطبيق، ط 1974، دار العودة، بيروت، ص 136.

ثلاثة آلاف دينار، للفرس ألفا دينار، ولفارسه ألف دينار"(1).

" فكانت غنائم المعارك التي وقعت بأيدي العرب في افريقية بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح كبيرة جدا "(2)، " فقد أصبحت ولاية افريقية كلها تحت رحمة العرب، ... فأخذوا ينهبون ما يجدونه حتى جمعوا غنيمة طائلة، ويظهر أنهم لم يغادروا ناحية إلا وصلوها وبلغوا سفوح الجبال حيث ترعى قطعان البربر، فاستاقوا كثيرا من الماشية، واجتمع للعرب من ذلك كله ثروة طائلة"(3).

حتى أن عبد الله بن سعد كان " يدهش لأكوام المال التي كانت توضع بين يديه، فسأل الأفارقة "(4) : "من أين لكم هذا ؟ فجعل إنسان منهم يدور كالذي يتلمس الشيء حتى وجد زيتونة فجاء بها إليه، فقال: من هذا الورق. قال وكيف ؟ قال: إن الروم ليس عندهم زيتون فكانوا يأتون، فيشترون منا الزيت فنأخذ هذا الورق منهم"(5). ويعبر " كودل Coudel " عن عظم وكثرة الغنائم بقوله: " ويدهش الإنسان من كثرة ما أصاب الجندي الواحد من الغنيمة ولكن ينبغي أن نذكر جيدا أن هؤلاء الرجال، ضلوا طوال بضعة أشهر ينتقلون من قرية لقرية، ومن مدينة لمدينة، يجمعون، بما عرف عنهم من العناية الفارغة بهذا العمل،

(1) - ابن عبد الحكم، م. س، ص 36.

(2) - خالد جاسم الجنابي، م. س، ص 107.

(3) - حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص 98-97.

(4) - سعد زغلول، م. س، ص 161.

(5) - ابن عبد الحكم، م. س، ص 39.

كل ما استطاعوا حمله، ولابد أن المحصول كان كبيرا، بحيث فكر عبد الله في التراجع مباشرة حين لاحت له مخايل المقاومة التي أبداها أهل الساحل"(1).

كما تظهر كثرة الغنائم، من خلال رواية يوردها المالكي تقول: "أن ابن سعد كتب إلى نائبه في مصر وهو عقبة بن عامر الجهني ليرسل إليه المراكب في طرابلس، وبعد أن حملت هذه المراكب أثقال الجيش في البحر، سار ابن سعد وأصحابه إلى مصر"(2) "فحسب الناس أن افريقية قد تم فتحها وتناقلوا هذا الخبر ودونه الرواة ... وهذا خلاف الواقع كما سبق بيانه، إذ لم تكن حملة عبد الله الإغارة طويلة، كثيرة الأحداث، وافرة الغنيمة، عاد العرب منها فعادت البلاد إلى ما كانت عليه"(3).

ويبدو أن هذه المغانم الكبيرة كان لها تأثير سلبي على علاقات أفراد الجيش بحيث تذكر بعض الروايات " أن مسألة المغانم والخمس سببت سخطا في جيش سبيطلة العربي على عبد الله بن سعد، فطلب الناس بعزله عن قيادتهم، واستجاب لهم عثمان بن عفان "(4)، " فالود لم يكن معقودا بين ابن الزبير وابن أبي سرح في افريقية، ورأينا الأول يقبل على معسكر المسلمين فلا يسلم على القائد، ثم يخاطبه في لهجة لا تخلو من شدة، ورأينا ابن أبي سرح لا تكاد تسنح له الفرصة للخلاص من ابن

(1) - حسين مؤنس، م. س، ص 99.

(2) - سعد زغلول، م. س، ص 161.

(3) - حسين مؤنس، م. س، ص 107-106.

(4) - سعد زغلول، م. س، ص 162.

الزبير، حتى يسارع فيرسله إلى المدينة، ولاحظنا كذلك أن ابن الزبير لم ينس في آخر خطبته أن يقول إن مروان بن الحكم طفق على غنائم الحملة كلها"(1). "فعبد الله بن الزبير وعبد الله بن سعد كلاهما كان يحاول السيطرة على الآخر وقيادة الجند"(2). "كما أن بعض الروايات الخاصة بحملة ابن سعد على سبيطلة تعبر عن عدم رضا أبناء الصحابة من المهاجرين والأنصار عن قيادة ابن سعد لهم"(3). أما بين مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير، فقد أثرت المغانم على علاقتهما في دمشق. " فقال مروان بن الحكم يوما، في مجلس معاوية: " ثلاث لم أدخل فيهن حراما قط: داري بالمدينة ومالي بذي خشب وصدقات نسائي، فنظر معاوية إلى عبد الله بن الزبير وكان حاضرا فقال له: ما تقول؟ فإنك طعان" فقال: فمهلا أبا عبد الملك، خرجنا مع ابن أبى سرح إلى غزو إفريقية فولله ما كان مروان أحسننا وجها، ولا أكثرنا نفقة ولا أعظمنا في العدو نكاية، فطفق على خمس إفريقية بما تعلم، وتحابى له من تعلم فبنى منه الدار واتخذ منه المال، وتزوج منه النساء"(4).

أما معاوية بن حديج فقد " وجه عبد الملك بن مروان في ألف فارس إلى مدينة جلولاء فحاصرها وقتل من أهلها عددا كثيرا حتى فتحها عنوة، فقتل المقاتلة وسبى الذرية وأخذ جميع ما

(1) - حسين مؤنس، م. س، ص 103.

(2) - نفسه، ص 100.

(3) - سعد زغلول، م. س، ص 164.

(4) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 13.

كان في المدينة وحمل ذلك كله إلى معاوية بن حديج ... كما أغزى جيشا في البحر إلى صقلية في مائتي مركب فسبوا وغنموا وأقاموا شهرا ثم انصرفوا إلى إفريقية بغنائم كثيرة"(1) " فأسفرت حملته عن غنائم كثيرة ورقيق وأصنام منظومة بالجوهر "(2). "وكانت غنائم حملة جلولاء _ مثلها مثل مغانم سبيطلة _ سببا في منازعات بين العسكر إذ أراد أفراد السرية التي فتحها أن تكون غنيمتها وسبيها لهم وحدهم دون بقية المعسكر"(3) ويورد ابن عبد الحكم رواية في هذا الشأن تقول: " إذا مدينة جولاء قد وقع حائطها فدخلها المسلمون، وغنموا ما فيها ... فاختلف الناس في الغنيمة، فكتب في ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان، فكتب أن العسكر رديء للسرية، فقسم ذلك بينهم فأصاب كل رجل منهم لنفسه مائتي دينار، وضرب للفرس بسهمين ولصاحبه بسهم قال عبد الملك : فأخذت لفرسي ولنفسي ستمائة دينار واشتريت بها جارية"(4) وكان النزاع اخطر على مستوى قيادة الجيش فلما دخلت مدينة جلولاء " واحتوى المسلمون على جميع ما فيها، كان بين معاوية بن حديج وعبد الملك بن مروان تنازع في ذلك، لأن عبد الملك أراد محاباة إخوانه وأصحابه"(5).

(1) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 17-16.

(2) - محمود اسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، منهج وتطبيق، ص 136.

(3) - سعد زغلول، م. س، ص 173.

(4) - ابن عبد الحكم، فتوح افريقية والأندلس، ص 48.

(5) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 18.

أما أثناء حملة عقبة بن نافع " فقد بلغت المغانم التي أحرزها، من الكثرة درجة جعلته يوجهها إلى المشرق"(1)، ولابد هنا من الإشارة إلى تصرفه الغريب مع " يليان " حاكم طنجة وخصوصا مع ما عورف عن عقبة من صرامة عسكرية جارفة فلما قاربه،" وجه إليه يليان رسالة، مستعطفا ومستلطفا وبعث له هدية عظيمة"(2) فانصرف عنه عقبة " لا إسلام ولا جزية ولا حرب"(3).

وهكذا فإن ولاية إفريقية " أصبحت بالنسبة للعرب أرض المغانم والأسلاب والسبي، أرض أكوام الورق وقناطير الذهب والسبايا الجميلات "(4).

وهذا ما يظهر بجلاء أثناء ولاية حسان بن النعمان " الذي عاد إلى المشرق محملا بالأموال والجواهر والذهب المخبأة في قرب الماء، وكذلك الوصائف والوصفان والجواري من بنات عظماء الروم والبربر "(5) وما جعل حسان يخبئ هذه الأموال في قرب الماء هو مخافته من عبد العزيز بن مروان والي مصر، الذي كان يقوم بدور الجمركي بين غنائم المغرب ونقلها إلى دمشق، بحيث كان يسيطر على النصيب الأوفر مما يعود به قادة الفتح من المغرب في طريقهم إلى الخليفة، " بحيث أن حسان لما قدم على

(1) - محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 137.

(2) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 26.

(3) - حسين مؤنس، م. س، ص 193.

(4) - سعد زغلول، م. س، ص 174.

(5) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 39-38.

أمير مصر عبد العزيز بن مروان، أهدي مائتي جارية ... فسلبه عبد العزيز جميع ما كان معه من الخيل والأحمال والأمتعة والوصائف والوصفان، ورحل حسان بالأثقال التي بقيت له، حتى قدم على الوليد، فشكى لها ما صنع به عبد العزيز فغضب الوليد على عمه"(1) وهناك رواية للرقيق ينقلها ابن عذارى تقول أن الخليفة الوليد بن عبد الملك استعظم ما قدمه له حسان من الأموال والذخائر، ولكن الرواية تحمل في ثناياها ما يشتم منها رائحة الخلاف على تقدير المغانم والأموال، فحسان يقول للوليد: إنما خرجت مجاهدا في سبيل الله، وليس مثلي يخون الله والخليفة، ورغم أن الخليفة عرض على حسان أن يرده إلى عمله بالمغرب وأن يحسن إليه فإن الوالي المعتز بكرامته حلف: لا أولي لبني أمية أبدا"(2).

بهذه الطريقة إذن انتهت ولاية حسان بن النعمان، لتبدأ ولاية موسى بن نصير " الذي حرص على جمع اكبر قدر من المال حتى أنه حرم رجاله في بعض الأحيان من حقهم"(3) فدخل المغرب " وقتل المقاتلة وسبى الذرية وغنم منها أموالا كثيرة ... فأصاب عددا من ولائد ووصفاء وذهبا وفضة"(4). " ولما وصلت موسى بن نصير وهو في القيروان أنباء، ذلك النجاح _ الباهر الذي حققه طارق _، بعد أن كان وصله نصيبه في الخمس من

(1) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 39-38.

(2) - سعد زغلول، م. س، ص 235.

(3) - محمود اسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 137.

(4) - الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، ص 40.

الأموال والسبايا من الإسبانيات الجميلات هرع في السنة التالية 93هـ بمن كان معه من القوات العربية"(1) " ففتح أسبانيا جذب اهتمام العرب وأنظارهم فانصرف الكثيرون منهم عن أتمام فتح افريقية وإسلام أهلها"(2) كما فعل موسى بن نصير الذي ما أن بلغه ما تيسر لطارق " حتى حسده على ذلك وقدم في حشد كبير"(3). " وأسرع طارق لملاقاته وتقابل القائدان في "طلبيرة ". ويقال إن موسى أنب طارقا وبالغ في إهانته ... وعزله من قيادة جيشه وحبسه وعهد بالقيادة إلى مغيث الرومي"(4).

"أما نهاية طارق فمثلها مثل نهاية " الكونت يوليان ". يمر عليهم المؤرخون بالسكون والصمت ولا يذكرون ما حدث له بدمشق"(5).

وبعد وصول موسى إلى الأندلس جمع من الأموال ما لا يقدر على صفته، ودفع طارق كل ما كان غنم إليه"(6) فكتب موسى إلى عبد الملك إنها ليست بالفتوح ولكنه الحشر"(7) " وخرج بغنائمه وبالجوهر والمائدة، فلما قدم افريقية كتب إليه الوليد

(1) - سعد زغلول، م. س. ص 250.

(2) - حسين مؤنس، م. س. ص 269.

(3) - ابن القوطية، تاريخ إفتتاح الأندلس، تحقيق: ابراهيم الابياري، دار الكتب الإسلامية، ط 1، 1982، ص 35.

(4) - حسن خلية وآخرون، تاريخ العرب في إفريقية والأندلس، ط 1، 1938، ص21.

(5) - نفسه، ص 78.

(6) - ابن عبد الحكم، فتوح افريقية والأندلس، ص 77.

(7) - نفسه، ص 78.

بن عبد الملك بالخروج إليه فخرج "(1). " ثم إنه ركب يريد الشام فلما كان بـ"العريش" جاءه كتاب الوليد يستعجله، وجاءه كتاب سليمان يأمره بالتربص، وكان سليمان ولي عهده وكان الوليد مريضا ... فأسرع موسى ولم ينظر في كتاب سليمان ودفع الأموال إلى الوليد وأهدى إليه المائدة والدر والياقوت ... ولم يلبث الوليد إلا ثلاثة أيام حتى مات "(2) " وبويع لسليمان بن عبد الملك بالخلافة، حين توفي الوليد، فسخط على موسى، وقال له: يا يهودي، كتبت إليك فلم تنظر في كتابي"(3).

" فحبسه واغرمه وعهد إلى خمسة نفر من وجوه العرب بالأندلس بقتل ابنه عبد العزيز منهم حبيب بن أبي عبيدة الفهري ... فقصدوا إليه ... فلما أصبح خرج إلى مسجد وصار في المحراب، وقرا بفاتحة الكتاب وسورة الواقعة، فرفع القوم سيوفهم عليه بمرة وأخذوا رأسه وبعثوا به إلى سليمان "(4). " وبعث سليمان في موسى بن نصير لما ورد عليه الرأس وأراه إياه في طست فقال له موسى: والله لقد قتلته صواما قواما "(5) "ولم يزل موسى يعذب حتى مات "(6). " في واد القرى سنة 97 هـ وهو في حالة عوز وبأس شديدين "(7).

(1) - نفسه، ص 82-81.

(2) - الرقيق القيرواني، م. س. ص 56.

(3) - نفسه، ص 57.

(4) - ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 36.

(5) - ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 37.

(6) - الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب، ص 60.

((7) - حسن خليفة، م. س. ص 24.

"والروايات تختلف في سبب نكبة موس بن نصير، وتقدم لذلك أسبابا شخصية منها سوء معاملة موسى لطارق بن زياد بسبب تنافسهما على فتح الأندلس، والإستلاء على كنوزه وذخائره، ومنها أن موسى فوت على سليمان تلك الكنوز فقدمها إلى الوليد وهو يحتضر"(1). " والحقيقة أنه رغم أن موسى وقع في قبضة الخلافة وأصبح تحت رحمة خصومه، إلا أنه كان يمثل خطرا شديدا على سليمان. فلقد حضر موسى إلى الشام تاركا بلاد المغرب والأندلس جميعا تحت سلطان أبنائه. فلقد كان عبد الله بن موسى في القيروان وعبد الملك بن موسى في طنجة وعبد العزيز بن موسى في اشبيلية "(2). " واتسعت أملاك موسى في الغرب حتى أصبحت تضارع في اتساعها أملاك الحجاج في الشرق "(3). " وكان المال يتدفق بين يديه بعد أن تم له فتح أسبانيا، وبلغ ذروة المجد والقوة إلا أنه دأب على التطاول على نصيب الخلافة بنفس الجرأة التي اصطنعها من قبل ... وكان الوليد قد دأب على مراقبة خطاه منذ زمن بعيد، ومن ثم أمره بالشخوص إلى الشام ليناقشه الحساب فأخذ موسى يسوف في تنفيذ هذا الأمر ردحا طويلا بقدر المستطاع. لكنه اضطر في النهاية للرضوخ وغادر أسبانيا، وبلغ البلاط وحاول عبثا أن يتقي غضب الخليفة بما قدمه إليه من الهدايا العظيمة ... وهكذا طرد ذلك الوالي الخائن شر طردة من الحلقة ... وكان الخليفة لا يرى عقابا له غير الموت غير أن بعض الرجال البارزين الذين أكتسبهم

(1) - سعد زغلول، م. س، ص 253.

(2) - سعد زغلول، م. س، ص 256.

(3) - حسن خليفة، م. س، ص 10.

موسى إلى جانبه بالمال سألوا الخلافة الإبقاء عليه، فأجابهم إلى طلبه بعد أن فرض عليه غرامة فادحة جدا"(1).

هذا هو الوجه الآخر، من شخصية موسى بن نصير، الذي استغل ولايته بالمغرب وقيادته لجيوش الفتح، ليكون مملكة حقيقية، ونحن هنا لا نبرئ ولا ندين لا الخلفاء ولا قادة الفتح وإنما نسوق الأحداث التاريخية كما هي، ونرى من الأمانة إيراد هذه القولة للرجل في آخر أيامه الصعبة بالشام، " عندما سئل، لماذا لم يمكث في عزه وجاهه بعيدا عن منال الخلافة، بقوله: والله لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافي شيئا ولكن آثرت الله عز وجل ورسوله ولم أر الخروج عن الطاعة"(2).

هكذا تواصلت هذه السياسة الاقتصادية الاستغلالية من طرف الدولة الأموية وولاتها بالمغرب، حتى عهد الخليفة التقي عمر بن عبد العزيز، " الذي كان حاكما محترما دينا، تفزعه صيحات الاضطراب والكراهية"(3). " فقد حاول وضع حد لتلك المظالم فعاود تطبيق سياسة عمر بن الخطاب تمشيا مع الشريعة الإسلامية، ففي المغرب أسند الإمارة إلى وال تقي هو إسماعيل بن عبيد الله، وأمره بإسقاط الجزية عن البربر المسلمين وتحرير من استرق من نسائهم، كما أمره بإعادة الأرض إلى أصحابها يجنون ثمارها ويدفعون عنها خراجها المعلوم، وأشار عليه بأن يجمع بين أعباء الحكم من إدارة وحرب إلى جانب جمع

(1) - رمون دوزي، تاريخ إسبانيا، ج 1، ص 132.

(2) - سعد زغلول، م. س، ص 255.

(3) - رمون دوزي، تاريخ مسلمي إسبانيا، ج 1، ص 134.

الخراج والصدقات، ليحول دون جورهم واستبدادهم ويستعيد ثقة البربر في الحكومة الإسلامية"(1).

" فكانت فكرة عمر بن عبد العزيز عن الإسلام أوسع أفقا من أفكار سابقيه فجعل همه نشر الإسلام أولا وقبل كل شيء وفي ذلك ينسب إليه الكتاب أنه قال: إن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا "(2).

ويعتقد الكثير من الكتاب المعاصرين أن الفتح الحقيقي للمغرب، ثم في عيد الخليفة عمر بن عبد العزيز، " على يد البعثة التي أرسلها برئاسة إسماعيل بن أبي المهاجر الذي كان عهد ولايته خيرا وبركة بكل ما تحمل الكلمة من معان "(3)، " بحيث اهتم بدعاء البربر إلى الإسلام واستجاب البربر جميعا لدعوته فلم يبق يومئذ في ولايته من البربر أحدا إلا أسلم "(4)، " ويرجع الفضل فيما تحقق في هذا الميدان إلى الخليفة نفسه إذ ينسب إليه الكتاب أنه بعث إلى المغرب عشرة من فقهاء التابعين من أهل العلم والفضل ... وبفضل جهود هؤلاء التابعين، تعلم المغاربة أصول الإسلام فقرءوا القرآن وعرفوا اللغة العربية"(5) وقبل خلافة عمر بن عبد العزيز، "لم يكن أهل إفريقية يعرفون

---

(1) - محمود اسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 139-138.

(2) - سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ص 262.

(3) - صابر محمد دياب حسن، بلاد المغرب في القرن الأول الهجري، ص 120.

(4) - سعد زغلول، م. س، ص 265.

(5) - نفسه، ص 266.

الحلال والحرام وكانت الخمر بإفريقية حلالا"(1)، حتى وصل التابعون فبينوا تحريمها.

إلا أن هذه السياسة الرشيدة التي استحدثها عمر بن عبد العزيز في المغرب لن تعرف الاستمرارية". بحيث ضرب بها عرض الحائط بعد موت عمر، وعادت الخلافة الأموية إلى سيرتها الأولى"(2) وهذا ما سنراه أثناء دراستنا لفترة الولاة.

---

(1) - ابن عذاري، البيان المغرب، ص 48.

(2) -محمود إسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، ص 139.